خصائص المديح النبوي الصوفي

أ/ علي لخضاري

ملخص المقال :

يدور موضوع هذا المقال حول بعض الخصائص التي تميز بها المديح النبوي الصوفي، فقد أشرنا في المقدمة إلى الدعائم و المقومات الأولى لنشوء هذا الأدب، ثم تطرقنا إلى الحقيقة المحمدية التي تكاد تكون ابرز الظواهر في كل تصورات أدباء وشعراء المديح الصوفي وهي ما تعني أن الرسول عليه الصلاة والسلام أصل كل الوجود، فهو أصل وجود الأنبياء والرسل وكل المخلوقات والأولياء والصالحين، وهو الذي يمد هؤلاء كلهم القوة بنوره الذي استمده النبي من نور الله. ثم عرجنا على الاستغاثات التي هي أيضا تكاد تكون ظاهرة بارزة في الأدب الصوفي على العموم، وهي ما يعني استنادهم إلى بعض الأحاديث التي تشير إلى شفاعته في الدنيا، وهي ناتجة عن دوافع سياسية واجتماعية مر بها الوطن العربي أمام تكالب الصليبية والتتار فلم يجد هؤلاء إلى الاستنجاد بسيد الخلق عليه الصلاة والسلام. ثم أضفنا خاصية المديح الرمزي التي يعد احد الظواهر البارزة التي طغى عليها أسلوب خاص في استعمال الأسماء والحروف وبعض الأدوات الأخرى للرمز بها إلى شخصيته الكريمة. وقد جعلها هؤلاء الصوفية في بناء وتركيب لغتهم وصوغ معاني مخيلتهم، فكانت لغتهم مختارة نقية صافية، وكل هذا جاء بأسلوب يختلف عن الأساليب الأخرى، بحيث وجدنا أن الأدب الصوفي يحتوي على كنز أو قاموس من الألفاظ المصطلحات الموحية والمعبرة والمعاني الدقيقة الرائعة التي لا يستطيع فهمها وحل ألغازها إلا من أوتي مفاتيح الفهم الصحيح والمعرفة التي تمكنه من الوصول إلى أسرارها.

تعريف بالموضوع والإشكالية المطروحة:

هذا الموضوع يهتم ببعض مميزات الأدب الصوفي من جانب غرض المدح النبوي، وهو يعطي صورة ولو جزئية عن بعض اتجاهات القيم الفكرية و الجمالية والرؤى الأدبية

من خلال تجارب إنسانية ناتجة عن أحاسيس أدبية رائعة تصوغها لغة فريدة جميلة معبرة،

وتبرز أيضا المواضيع التي إهتم بها الأدب الصوفي من خلال المديح النبوي، وتعطي صورة عن أشكال هذه الأذواق التي تتم عن تجربة حسية صادرة من أعماق نفس ذاقت حلاوة الطهر والصفاء. وتوقت إلى محبة سيد الخلق عليه الصلاة والسلام.

لكن مع هذا كله يجد الدارس غلو ومبالغة في وصف رسول الله بما لا يليق به حتى يتعدى إلى صفات الله عز وجل، إلا أننا نجد لغة عالية ومعان راقية قد أثرت المكتبة الأدبية العربية، وان كانت هذه المواضيع تحتاج إلى تمحيص ودراسة ووعي أدبي رفيع وذوق معرفي عميق وفهم صحيح لبعض النظرات المطروحة التي تتداخل في أمور عقائدية في بعض الأحيان .

والإشكالية التي يمكن أن نطرحها :

هي أن هذه الآداب لا زالت في حدود الغموض لأنها مؤسسة على مصطلحات ومعان ذوقية دقيقة غير متوفرة لدى كل من يدرس الأدب العربي، ولذلك فهي تحتاج إلى من يهتم بها ويفسر ألغازها ويبين معالمها ويحدد مفاتيحها لهذا الجيل ممن هم يعنون بهذا الاتجاه ويحرصون على فهم لغته وتفسير دلالاته ومعرفة مصطلحاته ومفاهيمه .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى : فان فلسفة الفكر الصوفي مازالت تحتاج إلى دراسات تخص خصائص المديح الصوفي وتكشف عن إيحاءاته العاطفية وصوره الإبداعية لأنه اختلف مضمونا وشكلا عن النظم الأدبي، فهو يترجم أحوالا ذاتية صادرة من أعماق نفس هي التي صنعت اللغة ووجهت تراكيب النظم واختارت اللفظ والأسلوب.

الكلمات المفتاحية - : تشطير -تخميس -وصف الخمرة -الوصل -القصد - الإدراك -استلهام -الشعر الخمري -إيحاء الصورة -الحقيقة المحمدية -تجلية الكون - يفيض الوجود -إلا مداد -أزلي الروح -الذات الأحادية -أصل الوجود النور -- الاستغاثات -الولاية -الكمال -مفاتيح التصوف -الذوق --أحاسيس باطنية - القبض -البسط -

غرض المديح الصوفي - الخصائص :

مقدمة :خصائص المديح الصوفي :لقد حظي شعراء الدعوة الإسلامية بمحبة واحترام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بذلوه من مناصرة ودفاع عن هذه الدعوة، حتى أصبح لمواقفهم مكانة عظيمة . إلا أن هذه المواقف لم تكن مؤثرة على المتصوفة كما كانت قصيدة البردة لـ كعب بن زهير" حينما وقف منشدا أمام رسول الله قصيدته المشهورة التي سميت - البردة - نسبة إلى بردة النبي الكريم التي البسها هذا الشاعر الذي أهدير دمه في فترة ما والحادثة معروفة [1] في كتب الأدب وغيرها . وهذه البردة تداولها الخلفاء تبركا من بعده وتركت في نفوس الناس مكانة عظيمة وألبست الشاعر حلة لا تبلى على مر العصور، وتعتبر هذه الحادثة من المواقف التي أيقضت أذهان المتصوفة في أن يركبوا المديح النبوي لعلهم يحظون بما حظي به كعب بن زهير، وبالتالي صارت القصيدة مباركة فاحتذوا بألفاظها وركبوا بحرها وعزفوا على رويها، فتنافس الشعراء في النسج على منوالها فشطروها وخمسوها وعارضوها فأصبح بذلك كعب رمزا مباركا يشار به إلى مدح خير البرية عليه الصلاة والسلام تصريحا وتلميحا عبر مطالع القصائد.

ابن جرير الضرير المتوفي سنة -780هـ [2]

وإن كعبا علينا إذ غدا سببـــا * لكعب خير بيمن الله مشمـــول**

وقال أيضا: الشاعر "علاء الدين "من)أهل القرن الثامن

فكعب كعب بر قد عـلا وغدا * مفضـــــلا وأنا والغير مفضـــول**

و"للبوصيري 696)هـ " «معارضة مشهورة سماها » :ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد، وعارضها "بن نباتة المصري 798)هـ "(فقال :

مالطرف بعدكم بالنوم مكحول * هذا وكم بيننا من ربعكم ميـــل**

وعارضها "ابن سيد الناس 734 هـ "(بقصيدة مطلعها :

قلبي بكم يا أهيل الحي مأهول * وحبله بأماني الوصل موصـــــول**

وعارضها "أبو حيان الأندلسي 684 هـ " فقال في قصيدة أيضا:

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول * العقل مختبل والقلب متبـــول**

فكانت هذه القصيدة حاضرة في بناء أكثر قصائد المديح الصوفي، فجزء كبير من المدائح كانت بدوية العبارة رصينة السبك فخمة اللفظ رقيقة الجرس جزلة الأسلوب موحية المعنى حاضرة الصورة فكانت بذلك تقتفي اثر القصيدة العربية الكلاسيكية، من الوقوف على الأطلال ووصف الراحلة والتشبيب بالمحبوبة ثم الخلوص من هوى النفس إلى مدح النبي عليه الصلاة والسلام والكلام عن مولده ومعجزاته وانتصاراته والإسراء والمعراج والرد على النصارى واليهود ثم التوسل والمناجاة، وإذا تأملنا في كل المديح نجد هذه الروح سائدة في الأعم الأغلب باستثناء بعض النماذج التي بدأت بوصف الخمرة على طريقة "ابن الفارض "وتوجيه القصيدة وجهة رمزية حتى الخلوص إلى المديح، ونجد ذلك عند "ابن الأرقم النميري الأندلسي " من أهل القرن الثامن حيث يقول في إحدى قصائده :

تعـــالوا نعاطيها مقدسة صـرفا * فنرشفها في بسط روض الهدى رشفا**

فيشير فيها إلى خمرة المحبة الأولى التي يتعاطها العارفون والتي يتعلق بها نظام الكون فتظهر منه الحقائق التي تمنح القصد بالصدق ثم الوصول ثم الإدراك .ولـ "تقي الدين السبكي "تائية كبرى نحى فيها هذا المنحى، ونعتقد أن هذا البناء هو الذي ابتكره أدباء المتصوفة وشعرائها إلا أن وسائله وأدواته ومعانيه استلهموها من الشعر الخمري

الظاهري إلا أنهم صرفوه عن معانيه الظاهرة إلى معاني رمزية تعبر عن تجربة ذوقية عميقة وإحساس فياض .

أما من الناحية الشكلية فجرى التعبير بالقصيدة والموشح والزجل وكل الأشكال الطارئة كالتشطير والترصيع والتخميس والتسد يس. ومن جهة أخرى نجد أن هذه الأغراض قد تأثرت بالبيئة الجديدة من حيث بنائها الفني بعد ما كانت تجري على ألفاظ قوية متينة وأسلوب جزل أصبحت تناسب البيئة الجديدة، فاختار الشعراء من الكلام أسهله وعمدوا إلى ما عرف واختصر وما كانت أحسن للسمع وأشدها وقعا في القلوب، وبعبارة أخرى كانت أكثر تهذيبا ونقاء وإيحاء للصورة والذوق الإسلامي هذه الأمور كلها من البناء العام التي تشترك فيه أغراض المديح النبوي الصوفي. ونعرض هنا بعض خصائص المديح وأهمها ومن بينها :

1- الحقيقة المحمدية :

انطلق شعراء التصوف من أحاديث كثيرة منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين ». [3]ومن حديث آخر رواه الطبراني عن أبي أمامة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال « :أول ما خلق الله العقل فقال له :اقبل فاقبل ثم قال له :أدبر فأدبر ثم قال له الله عز وجل. وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك» [4] فأول موجود كما يرى المتصوفة هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو المعنى الذي سجد له الملائكة وليس يعني هذا الوجود الجسماني، بل يعني الحقيقة المستمدة من نور الله عز وجل في تجليه الكوني الأول، والحقيقة المحمدية حلقة وصل بين الإنسان والله سبحانه وتعالى جل وعلا، وفي هذا الاتجاه ذهب إلى الغلو بعض المتأخرين من الصوفية، فقالوا أن النبي وسيط بين الله والإنسان، فـ "ابن عربي "يحكم بان

محمدا «هو من الناس وليس من الناس :» [5]من الناس لأنه مخلوق وليس من الناس لأنه يفيض الوجود على الناس، وهو العينة الأولى التي انبثقت عنها العينات الأخرى وحتى الأنبياء والرسل ...، ''وهو المهيمن على جميع الخلائق جعله الله عمدا أقام عليه قبة الوجود''[6]، وهو حادث الجسد أزلي الروح، فهو يشمل التعيينات كلها وهو واحد فرد في الوجود لا نظير له وليس فوقه إلا الذات الأحادية المطلقة المنزهة ومن أوليته كونه خاتما للنبيين وآل الأولين وآخر الآخرين، وقد لزم أهل التصوف ذلك سواء في إنتاجهم الفلسفي أو الأدبي، ولونوا ذلك بما شاء لهم الاسترسال فغدا ذلك ركنا أساسيا في مدائحهم، بحيث لا تكاد تخلوا منه قصيدة يقول الشاعر "الوتري 980"هـ[7]

بنور رسول الله أشرقت الدنيا * في نوره كل يجيء ويذهب**

بدا مجده من قبل نشأة آدم * أسماؤه في العرش من قبل تكتب**

فـ "الرسول محمد "عليه الصلاة والسلام هو قبضة النور الأولى التي فاضت عنها المخلوقات، فهو أصل هذا الوجود ولولاه لما كان وجود، حيث نجد "يوسف بن إسماعيل النبهاني 1350 هـ [8] يضيف هذه المعاني في إحدى قصائده في المديح النبوي حيث يقول :

نورك الكل والورى أجزاء * يا نبيا من جنده الأنبياء**

روح هذا الوجود أنت ولولا * ك لدامت في غيبها الأشياء**

منتهى الفضل في العوالم جمع ** فوقه من كمالك الابتداء

ويسترسل "النبهاني "شارحا حديث جابر الضعيف ملقيا ما استطاع من التفصيل والإيضاح حيث يقول :[9]

هو نور الأنوار أصل البريا * حين لا آدم ولا حواء**

هو فرد بالله والكـــــل منه * ليس ثان هنا وليس ثنـــاء**

منه عرش ومنه فرش ومنـه ** * قلم كاتب ولوح ومـــاء

وهو يشير في ثنايا القصيدة إلى أن كل الموجودات مستمدة من وجوده من أفلاك ونجوم ودواب وخلق ....وليس هذا الوجود الفائض عن حضرته إلا تكريما وتعزيزا، ولولا أن الله أراد إكرامه لما اوجد هذا العالم وفي هذا الجانب يقول " :النواجي 859 هـ [10]

ومن أوجد الله الوجود لأجله * وشـرفه منه بأكـرم بعثـة**

ولقد نظر إلى هذه الحقيقة المحمدية من عدة أوجه، فوجوده في كل شيء، فهو ما ينطبع في المرايا من الأشخاص والظلال وهذه أللفتة عرفها هؤلاء دون غيرهم فانظر إلى الشاعـــر "محمود الشامي 1291 "هـ [11] حيث يشير إلى ذلك :

فإذا نظرت إلى حقيقـة التي * هي غير ما أبصرت في مرآتـه**

أيقنت أن الكون بارقـة بدت * من نوره والكـل من منحاته**

ويقول أيضا "لسان الدين بن الخطيب "مضيفا إلى هذه الإشارة : [12]

وعلة هذا الكون أنت وكل ما * أعاد فأنت القصد فيه وما أبـدى**

وهل هو إلا مظـهر أنت سره * ليمتاز في الخلق المكب من الأهدى**

ويطلعنا "محمد الحلبي 725 هـ "[13] . بإشارة إلى أن نسبة الموجودات إلى ذاته صلى الله عليه وسلم هي نسبة المجاز إلى الحقيقة أو نسبة نور القمر إلى ضياء الشمس.

يا قطب هذا الوجود يا من * قد حاز في الرتبة امتيازا**

حقيقة الكـون عنك كانـت * والحق لا يشبه المجـازا**

وحين نستنفد الفكرة جديتها بالتكرار يذيلها شعراء المديح الصوفي بألوان تفصيلية اتخذت في مجملها منحيين :

الأول -يعمد إلى تفصيل الفكرة انطلاقا من آدم إلى المسيح عليه السلام .

والثانية -يعمد إلى عناصر الطبيعة ويتخذها مطية ذلك التذييل

والمنحى الأول أكثر ظهورا ونمثل له بقول الشاعر "ابن فرج السيتي : [14] "

ورأى ثراه من لأجـــل سناه خــر * الملك للمخلوق من صلصاله**

ونجا ابن لامك في السفين إذ استوي * ما الردى بسهوله وجبـــاله**

ونجا ابن آزر من لظى الإشـراك إذ * نال الذي قد نال من تمثـــاله**

فالشاعر يرى أن الملائكة إنما سجدوا لنور الرسول صلى الله عليه وسلم وأن نوح عليه السلام بنور الرسول صلى الله عليه وسلم نجا في سفينته وكذلك أنواره صلى الله عليه وسلم هي التي أطفأت نيران الخليل عليه السلام، وكل معجزة أو كرامة لنبي أو ولى إنما هي ببركة الرسول الكريم، وقد امتلأت المدائح النبوية بذلك امتلاء يلحظه كل مطالع لها ومتأمل فيها، والمنحى الثاني كان قليل الظهور ونمثل له بقول "العمري 678هـ . [15]

فلولاك ما انفك هذا الوجود * من العدم المحظ في مطبـق**

ولا شم رائحة للوجـود * وجود بعرنـين مستنشـــق**

ولولاك طـفل مـواليده * بحجر العناصـر لم يبعق**

ولا كست السحب طفل النبات * من اللؤلؤء الرطب في بخنـق**

ولولا أن الشاعر اختار قوافيه من حوشي الكلام وغريبة لكانت المقطوعة على مستوى جيد من الشاعرية، وهذا المنحى يكاد يكون معدوما في أدبيات المدائح النبوية ولعل أكمل صورة تعبيرية تقريرية عن الحقيقة المحمدية في شموليتها نصادفها عند الشيخ "

محمد بن حبيب الحسني "المتوفي في سبعينات القرن الماضي , وقد عبر عن ذلك بقصيدة تعد عنوانا للحقيقة المحمدية يقول فيها :[16]

محمد منشأ الأنـوار والظـــلل * واصل تكوينها في حظـــره الأزل**

فنوره أول الأنوار لمـــا قضـــى * إظهـار أسمائه في العـــالم الأول**

منه اكتست سائر الأشياء إيجادها * ومنه إمدادها من غير ما خـــلل**

تقاطر الأنبياء والرسل منه كما * تقاطرت سائر الأملاك والحـــلل**

والشمس والبدر والنجوم منه بدت * كالعرش واللوح والكرسي والدول**

ومحبة الرسول عليه الصلاة والسلام ومكانته في النفوس قد أخرجت بعض شعراء المديح الصوفي إلى صفات تليق بالله عز وجل أكثر مما تليق بالنبي الكريم، وانظر إلى قول أحد أقطاب الشاذلية وهو "السيد محمد وفا "المتوفي سنة 760 هـ[17]

وكل وجود غير جـــودك زائـل * وكل منير غير نورك يأفـــل**

سميع بصير أنت فيه وباطـــن * به ظاهر فيه وآخـــــر أول**

ويقول "يوسف النبهاني مادحا ضمن هذه المعاني التي اشرنا إليها [18] :

فكن بهذا الزمـــان ذا نظـــر * لنا كما كنت في الذي سلفا**

عبد لك الدهر أن أمـــرت له * يتوب مما بحقنا اقتـــرفا**

وأيضا حول هذه المعاني يشير الشاعر "عشور الخنقي [19] "

فقال ربي فقال الرب عبد ي نعم ***أمرك للشيء كن أمري فقل وقم

لك التصرف عن إذني بلا حـرج ***في الإنس والجن والشيطان الأمم

وصرح آخرون بالحيرة في وصف النبي عليه الصلاة والسلام وانه تستحيل الإحاطة بكنه حقيقته وقد أكثر المتصوفة من ذلك ونحن نقتصر على قول "البوصيري [20]."

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى * في القرب والبعد فيه غير منفحم**

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته * قوم نيام تسلو عنه بالحلم**

فمبلغ العلم فيه انه بشر * وانه خير خلق الله كلهم**

والحقيقة المحمدية لا تبقى حبيسة شخص الرسول عليه الصلاة والسلام؛ بل تجتازه إلى الأولياء والصالحين فكلهم يقتبس من نور الحقيقة المحمدية، وهو ما يعرف عند أهل التصوف بالإمداد، ومعناه أن النبي الكريم يمد الولي ببعض أنواره فتكتمل ولا يته، وهذا ما أشار إليه احد شعراء التصوف من خلال مديحه وهو "محمد بن الحبيب في القصيدة التي اشرنا إليها آنفا وهو ما عناه "الشيخ الديسي "حينما قال [21] :

محمد احمد المحمد سيرته * ورحمة لجميع الخلق مهداة**

عين الوجود محمد الخلق قاطبة * والكاملون لهم منه كمالات**

وهذا ما جر إلى الاستغاثة بالمشايخ ونسبة التصرف إليهم في ادوار التصوف المتأخرة ودفع بالكثير إلى الاستغاثة بالأضرحة على قضاء الحوائج ومعرفة الغيب وفي هذا المنحى يتجه قول الشاعر "عاشور ...مادحا شيخه "الهاملي (22) "

حيث التفت وجدت نور جماله * متجليا في الكون جلوة بدره**

لو يلتفت قلبي بشيء لفتة * إلا وتسبقها خواطر ذكره .**

بعد هذا الاستطراد القصير حول بعض ما دار حول الحقيقة المحمدية من طرف مادحي الاتجاه الصوفي من أفكار وأراء ونظرات أساسها الحب لهذه الشخصية الكريمة نجدها من جانب آخر قد أصبغت هذا الفكر وهذه الفلسفة بما يعرف بالاستغاثات التي لم تخل منها قصيدة صوفية وفيما يلي التطرق إلى بعض ما جاء في هذه الخاصية.

2- الاستغاثات: الأصل في الاستغاثات هي الأحاديث التي تعلقت بموضوع الشفاعة، ومنها عن أنس رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول » :لأشفعن يوم القيامة لأكثر مما في الأرض من حجر وشجر . [23]وهناك أحاديث كثيرة ذكرها الصوفية في هذا المعنى تتعلق بشفاعة الدنيا أيضا لمكانة الرسول عليه الصلاة والسلام عند ربه والمنزلة الرفيعة والمقام المحمود.

ولذلك كان كل شاعر يختم قصيدته بطلب الشفاعة يوم القيامة وأحيانا التوسل إلى الله به حتى تغفر الذنوب وتمحى الخطايا أو طلب شيء من الدنيا، لقد كان "السهيلي المتوفي سنة 581 هـ " يقول :انه كلما سال الله بمنظومته الله إلا أعطاه ما يريد. [24]، لكنهم لم يكتفوا بهذا عندما حولوا موضوع الشفاعة إلى الاستغاثة بسيد الخلق في كل الأمور من شفاعة وقضاء حوائج دنيوية وإبراء المرضى وكبت الأعداء ودحر الصليبيين والتتار مما نم على نزعة انهزامية شهدها العالم الإسلامي في أحلك عصوره .

وسنمثل لذلك بالقليل من الكثير الذي لا يمكن حصره حتى نعطي الموضوع حقه، فعندما كان التتار يجتاحون العالم الإسلامي مدينة بعد مدينة ووصل التهديد إلى بغداد نظر الشاعر "الصرصري" وراءه وأمامه فلم يجد منجدا يستطيع رد هؤلاء التتار فالتجأ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مستغيثا قائلا [25]:

قد مسنا الضر الشديد وشفنا * في كل عام يقبل التهديد**

إن لم يكن في الحال شر حاضر * فلقد أتانا للعدو وعيد**

فاغث ضعافا مالهم من قوة * إن لم تغثهم والعدو عنيد**

فإلى من الشكوى إذا أهملتنا * إني وركنك بالإله شديد**

وكان خطر التتار داهما لا يقف في وجه شيء مما جعل "الإمام الصرصري

656 هـ. لا ينسى ذلك في أي قصيدة نظمها ولتتأمل قوله : [26]

أجب نداء شج مستصـــرخ قلق * من فتنة أمعنت أنيابها العصل**
البر من ربعها والبحر منزعـج * والحرث والخيل والأنعام والخول**
من عصبة تتر لولا تخالفنـا * ما صدنا عنهم وهن ولا فشـل**
فاسأل لنا الله نصرا قاهرا لهم * مثبتا لقلوب شفهـــا الوجـــل**

وحين دخل التتار العراق كان الإمام "الصرصري "ممن سال دمه شهيدا .وإذا كان مقصد الإمام مثاليا فان بعض الشعراء التصوف اهتموا بأنفسهم وراحوا يسالون قضاء حوائجهم فحين مرض ابن الشاعر" البرعي" استغاث لشفائه فقا.[27]

قالوا نزيلك لا يؤذي وهـا أنا ذا * دمي وعرضي مباح والحمى هل**
وابني المسمى بك اشتد البلاء بـه * فارحم مدامعه في الخد تنهمـــل**
وحل عقدة هم عنـــه مـا بـرحت * واشرح به صدر أم قلبهـــا وجـل**

ولا يجد "يوسف بن إسماعيل النبهاني "حين تكالبت عليه أعداؤه ملجأ يلجا إليه سوى النبي عليه الصلاة والسلام راجيا النصرة واثقا من أن أمله لا يخيب، تأمل معي قوله في مدح خير البرية . [28]

اشكوا إليك أناسا قد طغـو وبغو * على واختلفت منهم أقاويـل**
كم اظهروا كيد سوء في واقترفوا * ذنبا وفي كيدهم حسر وتظليـل**
يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي * منهم فقد كثرت منهـــم أباطيل**
فليس إلا عليك اليـــوم متكلـي * وليس إلا إليك الأمر موكـــول**

وفئة من هؤلاء الصوفية اشرأبت أعناقهم إلى الولاية والكمال لم يجدوا أمامهم إلا رسول الله يستكملون من نوره ما نقصهم فطلبوا المدد منه حتى يكونوا أهلا للولاية والكمال .

فها هي "عائشة الباعوتية الدمشقية "تقول : [29]

مدني منه يفيض شامـل ***فالمني من راحتي في راحـتي

قلت ما قلت ولولا فيضكم ***مدني في مدحكم ما قلت شي

ولقد عم المديح النبوي عصر الانحطاط فشارك فيه كل الشعراء وغير الشعراء ووصل التأثير إلى الأندلس بل دخل بلاط بني الأحمر في غرناطة، حتى حاول ملوك غرناطة الكتابة في ذلك، وحين لم يتيسر لهم ذلك كلفوا الشعراء ينظمون المديح نيابة عنهم لترسل إلى المدينة المنورة وتقرأ عند قبره عليه الصلاة والسلام وفيها توسل واستغاثة ودعوة ورجاء واستنهاض لرسول الله حتى يهب لنصرتهم على أعدائهم .فها هو السلطان "يوسف بن نصر "يقول على لسان وزيره "لسان الدين بن الخطيب سنة 776هـ قصيدة طويلة جيدة يختمها بقوله : (30)

عدتني بأقصى الغرب عن تربك العدا * جلالقة الثغر الغريب وروميه**

أجاهد منهم في سبيلك امة * هي البحر يعي أمرها من يـرومه**

فلولا اعتناء منك يا ملجأ الورى * لريع حماه واستبيح حريمه**

فلا تقطع الحبل الذي قد وصلتـه ** فمجدك موفور النـوال عميمـه

وأنت لنا الغيث الذي نستـدره * وأنت لنا الظـل الذي نستديمـه**

فلا تنسني يا خير من وطئ الثـرى * فمثلك لا ينسى لديه خديمـه**

وفي بعض القصائد تلفت الانتباه ظاهرة أخرى وهي بداية الاستغاثة بالصحابة فبعد ما توسل شعراء المديح الصوفي إلى الله برسوله، توسل بعضهم إلى رسول الله بصحابته فهاهو الشيخ "عمر اليافي "شيخ الطريقة الخلوتية يمدح متوسلا فيقول [31]

يا رسول الله إلا له عــونا على * دهر رماني برمحه السمهري**

قد توسلت عند بابك بالصــديق * والصاحب التقـــــي النقـي**

وبفاروقك الضجيـع الذي قـد * كنت ترضي بحكمة المرضي**

وبعثمان ذي الحياء شهيد الدار * من حاز كـــــل وصف بهـي**

وبيعسوبك الإمـــــام على * قالع الباب في الوغى الخيبري**

وبكل الأصحاب من قد تروا * بشراب من خمـــرك الدنــي**

هم رجائي لديك في كـل داء * ومهم من ليل خطب دجـــــي**

وقد كثر المديح النبوي في هذا الاتجاه يقول "الابشيهي "في هذا المضمون : [32]

يا رب بالهـــادي البشير محمـد * القمر المنير الهاشمي المرسـل**

وبصاحبيه مضاجعيه أولى النهى * والفضل في تقديمهم لم يجهـل**

ويسترسل ذكر الخلفاء والستة الباقين المبشرين بالجنة وختم بأصحاب بيعة الرضوان ولم يغادر أحدا ولا نجد لمثل هذه الظواهر من تعليل سوى ما خيم على العالم الإسلامي من جهل بمنابع الإسلام الصحيحة وشريعته الطاهرة وبما خيم على الأمة من جمود وذل وانكسار جعل النفوس تقنع بالسلامة وتعدها مغنما بعد ما ذهبت من النفوس الشجاعة وحب اللقاء والجهاد في سبيل الله .

والمتتبع لمعظم اتجاهات هذا المديح من طرف الصوفية يجده قد البس حلة من الألفاظ والمعاني التي أعطته نوعا من المرونة والثراء ومنحته ميزة خاصة اكتسبها الأدب

الصوفي دون غيره خاصة في ما يدور حول المديح النبوي، وحول هذه الخصية نعرض لبعض هذه الأوجه باختصار مفيد .

3 -**توظيف الاصطلاحات الصوفية** :كان للصوفية معجم أدبي ملحوظ، فلقد عرفت عنهم ألفاظ وتعابير تمثل ثروة هائلة من المصطلحات كما قيل لكل صاحب حرفة أدواته ووسائله الخاصة به، وكانت اغلبها تتعلق بمعان وجدانية وأفاق روحية وخلجات نفسية وأوضاع اجتماعية كلها تدور حول تربية النفس والارتقاء بها .

لقد اهتم الجاحظ بهذا الجانب فخلص إلى أمرين :جودة الأدب وقوة الأخلاق وقد أشار إلى ذلك الدكتور "زكي مبارك "فقال إن للمتصوفة أدب راق رائع وأخلاق عالية جميلة: (33)

والتصوف فن له مصطلحات تعد بمثابة المفاتيح لمعرفة أسراره والدخول إلى جوهره، وهي مفاتيح غامضة ودقيقة لكون التصوف مبني على الذوق، وبالتالي نجد أن اللغة غير موضوعة له ومن ثم أصبحت هذه اللغة تعرف عند فئة قليلة تهتم بهذا المجال من حيث الدرس والفهم والاستكشاف العلمي في مجالات البحث، أو ممن هم مهتمون بهذه الآداب الصوفية بوجه خاص .

وعليه فان الصوفي يجري عملية استعارة اللغة العادية وتكييفها وتحميلها قدرا كبيرا من ثراء المعاني النفسية والأحاسيس الباطنية الروحية ليعبر بها عن أحوال ذوقية شعورية مرتبطة بترقيته من عالم المادة إلى عالم الروحانية الطاهرة الزكية فترقى به هذه المعاني فوق مستوى العقل، ومن هنا ينشأ الغموض ونجد هذا مغروسا في كثير من قصائد المديح النبوي الصوفي، ونحاول التطرق إلى جانبين هامين من خلال هذه الإشارة، وهما جانب اللفظ وجانب المعنى .

أ- اللفظ الصوفي :قال " :يوسف بن إسماعيل النبهاني : [34] "

قبض القبض منهم بسط البسط لهم حين بادت البيداء

والمعنى أن الحزن عوض بالسرور حين انقطعت الصحراء وبدت لهم المدينة المنورة، وعبر عن ذلك باصطلاحين صوفيين هما - القبض والبسط - فرح يعتري القلوب بسبب قرب شهود الحبيب[35] القبض عكسه وضده ويحصل متى حصلت من العبد زلة أو ذنب، ولم يستعملها الشاعر هنا لوصف تجربة صوفية، بل لوصف تجربة حسية دنيوية .وكرر هذا المعنى مرة أخرى فقال : [36]

أأحبابنا ما خنت عهدكم قط * فهل بعد القبض يحصل لي البسط**

وفي هذا المضمون قال " :البرعي [(37)]"

أصوم عن الأغيار قطعا وذكركم * لصومي سحور في الهوى وفطور**

فجاء بلفظة الأغيار وتعني عندهم كل ما يحجبك عن الله .والكلمة مأخوذة من) غير (بمعنى غير الله فما عدا الله كله أغيار والوقوف معها حجاب عنه، والشاعر استعملها في قريب من هذا المعنى ومثل ذلك قول "ابن معتوق [(38)] "

أرى مماتي حياتي في محبته *** ومحنتي وشفائي أهنا النعـــم

وقد استقى البيت من قول " :ابن الفارض "حينما قال [(39)] :

فالموت فيه حياتـــي *** وفي حياتي قتلـــي

والموت عند المتصوفة قتل الشهوات النفس وخرق عوائدها حتى تذل وتفنى . وعندئذ تحيا بالله لا بنفسها، وحياة النفس ظهور نوازعها وشهواتها ومن ثم تبتعد عن الله وذلك قتلها الحقيقي .فاستعمل "ابن معتوق "هذين اللفظين ليعبر عن فنائه في محبة

رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام .وليقول انه لم تبق فيه فضلة لغيره إلى الوجود فها هو "الشيخ محمد البكري "المتوفي سنة 992هـ يقول مادحا[40]

ومن أودع الرحمان في كنز قلبـه * علـوم تجليه وسائـر ما وهب**

ويا نور قدس الذات في عظموتها * ويا حكمة تمت بها سائـر النسب**

ويا عرش سر الله مهبط وحيـه * ومن قلم اللوح المحـيط بـه كتب**

ونقطة باء الجمع في ملكوتـها * وقرآن غيب العين والواصل الأحب**

ومن أبصر الذات المقدس نورها ** مصونا عن التشبيه والشـك والريب

ومن رفلت في حلة القرب ذاتـه ** فأصبح أسمى من لذيل الـولا سحب

أننا أمام طلاسم بدون استعمال أدوات الفن الصوفي .لا نستطيع فتح مغلقها ولا فهم عاصيها إذ هي مكتوبة بقاموس آخر وتفكير آخر ونظرة للوجود أخرى

وتصور لشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام مغاير وباستعمال هذه الأدوات نحاول أن نقترب من المعنى ونفك النسيج المبهم .فنخلص إلى أن الشاعر أراد أن يقول ((أن الموجودات استمدت وجوده من تجلي أنوار الله عليه، فوجود كل موجود على قدر تجلي الله فيه وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو قبضة النور الأولى ومنها خلق الوجود فهو عليه الصلاة والسلام كنز كل العلوم والمواهب التي وضعها الله في الوجود .والنور الذي تجلى في سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو نور الذات الإلهية الأقوى وليس الصفات الإلهية ولا الأسماء الإلهية إذ هي دون الذات المنزلة .ولذلك كان سر الله و ومهبطا للوحي ومقدر ما يقع إذ به القلم كتب المقادير .ولذلك كان مجموعا بالله لا بنفسه فهو يحي بالجمع لا بالفرق .))

إن مثال هذه الأبيات تستنزف الكثير من الكلام دون طائل كبير تحتها إلا معرفة النظرة الصوفية لشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام الكريم ولنأخذ نموذج آخر لشيخ "محمد وفا الشاذلي "حيث يقول : [41]

وكل وجود غير جـودك زائل * وكل منير غير نورك يأفل**

جمل اجل العز سر كماله * فأي كمال منـه لا يكتمـل**

فحدك حد جامع الفصل مانـع * وفارقت حتى لا تحد فتفصل**

عليك مدار الخلق إذ أنت قطبهم * وأنت منار الحق تعلوا وتعدل**

سميع بصير أنت فيه وباطـن * به ظاهر فيـه وآخـر أول**

فهذا بقاء في فنـاء مؤيـد * وهذا فناء في بقـاء مـؤزل**

فأفناه في الباقي عروج مؤصل * وأبقاه في القاني نزول محصل**

إلى آخر القصيدة التي يريد أن يقول فيها :أن وجود سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو الوجود الحق وما سواه باطل،

لأنه قبضة النور الأولى التي صدر عنها الوجود فما لم يصدر عنها فليس بوجود وشخصيته عليه الصلاة والسلام تجلي فيها جلال الله وجماله وهما مناط الكمال ولهذا فكان جامعا للفضائل مانعا لان يخرج عنه منها شيء وفارق العوالم حتى لا يعلم أحد حقيقة. لأن حقيقته، لو علمت، صار لها حد وفصل ولذلك تجلت فيه صفات الله من سمع وبصر وبطون وظهور وآخر وأول فحين أسرى به عليه الصلاة والسلام ناجى به وفني عن شخصه بقرب الله فلم يعد له بقاء بنفسه .بل بربه فناء البقاء المؤيد بعد الفناء عن نفسه ففني عن نفسه ساعة النجوى وبقي بنفسه ساعة حصول النزول .

ومن بين الخصائص التي أودعها الصوفية في ديوان المديح النبوي، حيث استعملوا بعض الأسماء كرمز لشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام ولأهمية هذه الخاصية في أدب المديح النبوي الصوفي نحاول أن نشير إلى بعضها باختصار .

4- المديح الرمزي :

أمدت الحقيقة المحمدية الصوفية بقاموس كبير .بدايته تلك الأحاديث النبوية التي عرضناها ونهايتها تلك الهالة الفلسفية التي أحاط المتصوفة بها شخصية الحبيب صلى الله عليه وسلم وتوسل شعراء المديح الصوفي بكل أساليب التعبير عنها. وكان الرمز من أحد أساليبهم. حتى أن القارئ لا يدرك المراد من شعر المديح ما لم يكن لديه مفاتيح هذا القول.

ولقد اشرنا إلى هذا عندما تحدثنا عن خاصية توظيف المصطلح الصوفي للألفاظ والمعاني .وسنضرب مثال عن ذلك لدى الشاعر "المنتجب العاني "المتوفي سنة 400هـ . فقد رمز برموز شتى جاعلا هذا الرمز بمثابة الاسم، فمرة يرمز إليه بالميم اختصرا ومرة يرمز إليه بالاسم ومرة يرمز إليه بالبيت وأخرى يرمز إليه بالعرش وأخرى بالمكين حسب ما وصلت إليه الفلسفة الصوفية يقول مادحا .[42] :

وتأمل قوله :

وقد كان أبدا الميم من نور ذاته * فخرت له الأملاك من قبل سجدا**

دعاة العلى الشأن فينا محمدا * وكان دعاة في السماوات احمـدا**

هو البيت والعرش المكين لعارف * وأول نور كـان الله وحد ا**

وقد سلك "ابن الفارض "سبيلا أكثر رمزية وشمولية وفنية .حين رمز إلى الحقيقة المحمدية وتغنى بها متغزلا وممثلا لها في جمال المحبوب المعشوق .ونسب لجمال المحبوب

ما ننسبه عادة إلى المرأة المحبوبة .فهاهو قد بلغ الذروة في الارتقاء بمفعول جمال هذا الحبيب الذي ما هو إلا الحقيقة المحمدية التي فاضت أنوارها على الموجودات يقول : [43]

لو اسمعوا يعقوب ذكر ملاحة * في وجهه نسي الجمال اليوسفي**

أو لو رآه عائدا أيوب في * سنة الكرى قدما من البلوى شفي**

كل البدور إذا تجلى مقبلا * تصبوا إليه وكل قد أهيف**

كملت محاسنه فلو أهدى السنا * للبدر عند تمامه لم يخسف**

وعلى تفنن واصفيه بحسنه * يفنى الزمان وفيه مالم يوصف**

وتأكد تكون هذه السيمة واضحة المعالم في ديوان المديح النبوي الصوفي كديوان "ابن الفارض وابن عربي وعفيف الدين التلمساني وغيرهم مما لا يسمح المقام بذكره.

الخاتمة : (النتائج)

بهذه الإشارة السريعة التي حاولنا التركيز على بعض الجوانب الهامة في الخصائص المديح النبوي الصوفي يمكن أن نلخص أهم النتائج في النقاط التالية :

-تعتبر فلسفة التصوف ظاهرة فريدة من حيث تعدد الخصائص التي مني بها الأدب الصوفي عموما والمديح النبوي خصوصا، وبالتالي كثر حولها التنافس والجدال بين شعراء التصوف حتى وصلوا إلى التطرف والمغالاة في كثير من التصورات في تحديد مكانة الحقيقة المحمدية وما يمنك أن ينتسب إليها، أي إلى شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام.

- لقد حظي أدب الصوفية بمعجم أو قاموس من الألفاظ أو المصطلحات التي أثرت الأدب العربي عموما والمديح النبوي خصوصا، بحيث منحت وأضافت اللغة الصوفية

تنوعا في أشكال استعمال الرمز، مما أثرى صورة اللغة وخيالها وأدت بذلك إلى التنوع في الأسلوب والأدوات .

-أصبحت كثير من المنظومات الشعرية عبارة عن سجل حافل بتاريخ هذه الدعوة الإسلامية، وحافل بتسجيل وقائع وقضايا المتصلة بحياة الدعوية لهذه الشخصية الكريمة عليها الصلاة والسلام .وأصبح يعرف هذا التسجيل بديوان المديح النبوي الذي لم يقتصر على حقيقة الخصائص من جانبها الفني والتقني والجمالي في صناعة الصورة والخيال والدلالات المتنوعة، وإنما أضاف لها تسجيلا حيا عبر مختلف مراحل تاريخ هذه الدعوة بكل ما يتصل بها اجتماعيا وسياسيا.

-اتصف بعض شعراء التصوف بالسذاجة والجهل. لأنهم لم يعمدوا إلى حقيقة الكتاب والسنة الصحيحة من جهة أو تأويل وفهم بعض الأحاديث خطا، مما حول الأمر إلى المبالغة أحيانا في أشياء كثير تتعلق بهذه الشخصية العظيمة وحقيقة الدعوة المحمدية السمحة.

-استعمال بعض شعراء المديح حوشي الكلام وغريبه في العديد من القصائد التي تعرضنا إليها، مما يقصر من فهمها لدى عامة طلبة العلم أو القارئ العادي، ومنه فان هذه اللغة) المصطلح والمعنى (حتاج إلى ممارسة وتتبع ونظر من فئة خاصة مهتمة بهذا المجال الأدبي الرفيع .

– تقل الصورة البيانية الفنية في كثير من المنظومات المتأخرة، لان في الحقيقة هناك تدافع وحب من طرف غير الشعراء المجيدين دخلوا في ساحة النظم في المديح النبوي تقربا وحبا وإخلاصا، مما وجد أن هناك شعرا كثيرا تقل فيه جودة الشعر في تركيبه وبنائه وفي اختيار اللغة والمصطلح الذي يوافق المعنى الجميل الرائع، وبالتالي هنا تداخل بين

ما هو جميل جيد وبين ما هو دخيل يحتاج إلى تصنيف وترتيب في باب آخر ضمن شعر المديح.

-هذا الكم الكبير من القصائد الصماء في مدح رسول الله عيله الصلاة والسلام أملاها الحب الفياض بهذه الشخصية على مر عصور التاريخ .وبالتالي أصبحت شخصية الرسول محور دار حوله المديح النبوي الصوفي.

-اكتمال الحقيقة المحمدية كانت قاعدة كل مديح صوفي واقترن ذلك بظهور بالحروب الصليبية والتتار التي ساء فيها النصارى للشخصية الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فدفع هذا الأمر بالدفاع والرد فكان المديح النبوي الصوفي خير أداة واقرب وسيلة.

-تأخر ظهور المديح الصوفي مرتبط بتأخر نضج الحقيقة المحمدية في أذهان هؤلاء الصوفية من شعرائها وأدبائها.

- تتبع شمائل المصطفى عليه السلام تتبعا دقيقا لرسم شخصيته رسما حيا.

الإحـــــالات والهـــــوامش :

-1أدب صدر الإسلام، واضح الصمد،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1،ص211 :، 1994

-2المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ج3/

-3لطائف المنن في مناقب أبي .ع، ابن عطاء لله السكندري، ت /ع.

الرحمان العك،ط1، دار البشائر .دمشق 1992.ص. 57:

-4شعر ابن الفارض، عاطف جودة نصر، ط.1دار الأندلس بيروت .1982ص203/204:

-5التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، د/زكي مبارك، مج. 2ص230:

-6المرجع نفسه مج 1، ص 230

-7المجموعة النهانية في المدائح النبوية،يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار الفكر لبنان .مج 1، ص411 :

-8نفس المرجع السابق، مج 1، ص204 :

-9نفسه، مج 1، ص214:

-10نفسه، مج1، ص540:

-11نفسه، مج 1، ص551:

-12نفسه، مج 2، ص39 :

-13نفس المرجع، مج 2، ص256 :

-14نفسه، مج 3، ص 394/395:

-15نفسه، مج 2، ص474:

-16ديوان بغية المريدين، الشيخ محمد الحبيب الحسني،طبعة خاصة لاصحاب الطريق 1368هـ .ص56:

-17المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، يوسف النبهاني، مج3، ص330/331:

-18نفس المرجع السابق، مج 2، ص 401 :

-19الشعر الديني الجزائري الحديث عبد الله ركيبي ط .1الشركة الوطني ة للنشر ص231:

-20الزبدة في شرح البردة، الغزي بدر الدين محمد، ت /عمر موسى باشا .ط . 2شركة الوطنية للت للتوزيع والنش الجزائر .ص 71/72:

-21الشعر الديني الجزائري الحديث، عبد الله ركيبي، ط .1الشركة الوطنية للتوزيع . 1981ص70:

-22نفس المرجع السابق، ص171:

-23الشفا بتعريف حق وق المصطفى، القاضي عياض أبو الفضل اليحصبي .ط 1دار ابن حزم بيروت، عند مسند الإمام احمد، ص136 :

-24التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، د /زكي مبارك، المكتبة العصرية صيدا بيروت، مج 2، ص66:

-25المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، يوسف النبهاني، مج2، ص24:

-26نفس المرجع السابق، مج 3، ص256 :

-27نفس المرجع، مج 3، ص 235 :

-28نفسه، مج 3، ص151 :

-39نفسه، مج 4، ص344/356 :

-30نفسه، مج 4، ص97/ 96 :

-31نفسه، مج 4، ص349/350 :

-32نفسه، مج 4، ص 363 :

-33التصوف في الأدب والأخلاق، د /زكي مبارك، ص208:

-34المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، مج 1، 206

– 35إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ابن عجيبة احمد بن محمد، دار الفكر بيروت ص123

-36المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، مج 2، ص 305:

-37نفس المرجع، مج 2، ص 94:

-38نفسه، مج4، ص20 :

-39الديوان، ابن الفارض، تح /فوزي عطوي، ط . 2دار صعب بيروت .ص177:

-40المجموعة النبهانية، مج 1، 473

-41نفس المرجع، مج 3، ص330/331 :

-42فن المنتجب العاني وعرفانه أسعد علي ط. 2دار الرائد العربي بيروت 1980ص 60

-43الديوان، ابن الفارض، ص159/160: